■ الباب الرابع ■

علوم الأرض فى الحضارة الإسلامية

قبل الخوض فى هذه القضية لابد لنا من مناقشة أمرين أساسيين : **أولهما** وضع العالم قبل البعثة المحمدية الشريفة ، **وثانيهما** تميز الفكر العلمى الإسلامى كأساس حضارى مغاير تمامًا لأسس الحضارات المادية السابقة واللاحقة على حد سواء ، وأقصد بها الحضارات المنحرفة عن هداية الله - تعالى - .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

وضع العالم قبل البعثة المحمدية الشريفة

جاءت بعثة المصطفى ﷺ رحمة للعالمين فى وقت كانت قد ضاعت أصول كل الرسالات السماوية السابقة أو حرفت وبدلت وغيرت ، وبالتالى تعرضت عقائد الناس إلى قدر هائل من التبديل والتحريف والتغيير والتزييف ففسدت ، وبفسادها خرجوا – أفرادًا وجماعات – عن إطار المنهج الربانى للحياة ، فامتلأت الأرض جورًا وظلمًا ، وتردت البشرية فى هاوية من الانحرافات الفكرية والضلالات السلوكية ، وأنماط الظلم الاجتماعى التى شقيت بها وأشقت .

وليس أدل على ذلك من شيوع الكفر والشرك والإلحاد فى جنبات الأرض ، وتعدد مظاهر الوثنية بين العباد ، وخضوع المجتمعات الإنسانية لقدر هائل من الهواجس الظنية ، والأساطير الوضعية ، والخرافات المنسوجة من مثل الاعتقاد الباطل بوجود قوى خفية رهيبة « علوية » فى مختلف مواد هذا الكون الظاهرة من مثل : الحجر والشجر والكواكب والنجوم .. وفى ظواهره المتعددة من مثل عصف الرياح ، وهطول الأمطار ، وطوفان السيول ، وقصف الرعود ، ووميض البروق ، وتردد الخسوف والكسوف ، وتكرار الهزات الأرضية ، والثورانات البركانية .. والعواصف والأعاصير وغير ذلك من أشياء

الكون وظواهره ، التى تخيلوها قوى خفية علوية تهيمن على المناطق الآهلة بالسكان ، بينما تسيطر قوى خفية أخرى « سفلية » على البرارى والقفار ، حيث تترصد للإنسان بالأذى وهذه أحالوها إلى عالم الجن والشياطين .

وقد هاب الناس هذه القوى إلى حد العبادة تارة .. وإلى حد التقرب بها إلى الله زلفى تارة أخرى ففسدت بذلك العقائد ، وحرفت العبادات وساءت العادات ، وتدنت المعاملات ، وانحطت الأخلاق ، وضيعت القيم ، وانحرفت الأفكار ، وانقلبت المفاهيم.. وشقيت المجتمعات البشرية بذلك كله شقاء ما بعده شقاء ولا تزال .

فالجزيرة العربية .. أرض الكعبة المشرفة .. وأرض الرسالات السماوية ، مهبط آدم ومسكن كل من نوح وإبراهيم وإسماعيل وغيرهم من أنبياء الله ورسله (على نبينا وعليهم جميعًا أفضل الصلاة وأزكى السلام) أضحت ممزقة بين أشكال من الوثنية لا تحصر ، فعبدت الأحجار والأشجار ، والآبار والكهوف والحيوانات ، والشمس والقمر وغيرهما من النجوم والكواكب ، وكان لكل قبيلة من قبائل العرب أكثر من إله مبتدع ، وأكثر من صنم مُصَنَّع حتى بلغ عدد المعروف المشهور منها حتى مولد رسول الله ﷺ أكثر من ثلاثمائة وستين صنمًا كان يعتقد أهل الجاهلية بأن الله تعالى قد ترك لها السلطة فى بعض التصرفات من مثل إقصاء الوباء ، وتحقيق الرجاء ، وطرد الشرور ، وإبعاد المجاعات ، وشفاء الأمراض ، ووهب الذريات ، وإنزال المطر ، وتخضير الأرض ، وملء الضرع ، وتوسيع الرزق...!!

كذلك كان لأهل كل دار صنم فى دارهم يعبدونه ، بل كان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً – **كما يروى ابن الكلبى – فى كتابه « الأصنام » : ص٢٢ –** : « أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًّا وجعل ثلاث أثافى لقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك » .

ويعتقد بأن **عبادة الأصنام** قد بدأت بشىء من تعظيم الموتى ، ويستدل على ذلك بحديث ابن عباس (رضى الله تبارك وتعالى عنهما) الذى ينسب إليه فيه قوله : « صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب من بعد ، وهى أسماء رجال صالحين من قوم

نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها باسمهم ففعلوا ، فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت»[1] .

وإذا علمنا أن « بين آدم ونوح عشرة قرون كانوا كلهم على الإسلام » ، كما أخبر بذلك حديث ابن عباس (رضى الله تبارك وتعالى عنهما) ؛ علمنا أن هذه كانت أول وثنية فى تاريخ البشرية ، ويعتقد بأن عبادة الأوثان قد انتقلت إلى جزيرة العرب فى عصور الجاهلية بتأثير من وثنيات الأمم المجاورة من البابليين والفرس والرومانيين واليونانيين ، أو أنها جاءت من انحرافات العباد من مثل قوم هود - عليه السلام - عن الديانات السماوية الأولى ؛ ولذلك ظلت مختلطة بشىء من الإيمان بالله ، فلم يكن العربى يعبد الوثن معتقدًا أنه خالقه ، وخالق الكون من حوله ، لأنه كان تارة يستقسم عنده ، وتارة أخرى يسبّه ويشتمه ، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة إذا كان قد صنعه مما يؤكل كالعجوة مثلاً .

وكان أول من أدخل عبادة الأوثان والأصنام إلى جزيرة العرب هو « عمرو بن لحى » جد قبيلة خزاعة وذلك لقول أبى هريرة : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول لأكثم ابن الخزاعى : « **يا أكثم رأيت عمرو بن لحى ... يجر قصبه فى النار فما رأيت رجلاً أشبه برجل منك به ولا بك منه** » فقال أكثم : عسى ألا يضرنى شبهه يا رسول الله ، قال ﷺ : « **لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه كان أول من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامى** »[2] .

وبجوار عبادة الأوثان انتشرت **المجوسية** - عبادة النار والنور والظلام - ، **والمزدكية** (**الزندقة والزرادشتية**) ، **والمانوية** (وهى عقيدة بين المجوسية والنصرانية) ، وكفار الصابئة الذين انحرفوا عن دين نوح وإدريس - على نبينا وعليهما أفضل الصلاة وأزكى

---

(١) أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، ك التفسير ، ب سورة نوح ، ح رقم ٤٩٢٠ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ، جـ ١ ، ص ٥٥ .
(قصة عمرو بن لحى وذكر أصنام العرب) .

التسليم - فعبدوا الأصنام والكواكب ، ودانت بهذا الدين قبائل عربية كثيرة فكانت «كنانة» تعبد القمر ، و« حمير » تعبد الشمس ، و« لخم » و« جذام » تعبدان المشترى ، و«طىء» تعبد سهيلاً ، و« قيس » تعبد الشعرى ، و« أسد » تعبد عطارد ، وغيرهم يعظم زحل أو الجوزاء أو الجبار أو الثريا (انظر : التاريخ الإسلامى العام للدكتور على إبراهيم حسن) .

ولم يجد فى مقاومة ذلك المد الوثنى أن بعض الجيوب من اليهود والنصارى كانت قد انتشرت فى أنحاء مختلفة من شبه الجزيرة العربية ، فقد لجأ اليهود إلى كل من بلاد اليمن وشمالى الحجاز خاصة فى القرنين الميلاديين الأول والثانى ، بعد اندحارهم أمام الرومان الذين كانوا قد اجتاحوا أرض فلسطين ، ودمروا هيكل سليمان فى بيت المقدس (سنة ٧٠م) ، وتشتت اليهود فى بقاع الأرض لمطاردة الرومان لهم واضطهادهم إياهم فى كل مكان وجدوهم فيه ، فلم يكن أمامهم من ملجأ إلا شبه الجزيرة العربية . خاصة بعد أن أعاد الإمبراطور الرومانى « هدريان » اجتياح مدينة القدس مرة أخرى سنة ١٣٢م وشرد من بقى فيها من اليهود . وكان اليهود قد فقدوا التوراة أثناء السبى البابلى ، فحرفوا دينهم وابتدعوا فيه ، وتاجروا به ، وألّهوا « عزيرًا » وأشركوه فى عبادتهم مع الله ، وادعوا بالباطل أنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا - وانغمسوا إلى آذانهم فى ماديات الحياة فضلوا وأضلوا .

كذلك انتشرت النصرانية فى كل من نجران والحيرة ، والأنبار وتدمر وأرض الغساسنة ، خاصة فى أيام الاضطهادات الدينية التى تعرض لها المسيحيون على عهد القياصرة الرومانيين الوثنيين ، أو المتشيعين لطائفة دون طائفة بعد أن دخلت روما فى طائفة من المسيحية فلم يكن أمام كثيرين من كهنة المسيحية ورهبانها إلا الفرار بدينهم إلى بلاد العرب ؛ حيث كان يصعب على الرومان اللحاق بهم .

ونقول إن وجود بقايا هاتين الديانتين السماويتين فى أرض شبه الجزيرة لم يجد شيئًا فى مقاومة مد الوثنية والانحرافات العقائدية الكثيرة فى تلك الديار ؛ لأن هاتين الديانتين كانتا قبل بعثة المصطفى ﷺ بمدة طويلة قد فقدت الصلة بأصولهما السماوية ، فتعرضنا

لكثير من التزييف والتبديل والتغيير الذى أخرجهما عن إطارهما السماوى فأفسدهما وملأهما بالانحرافات الفكرية التى أدت إلى انصراف الناس عنهما ..، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى اختلاطهما بالفلسفات اليونانية والفارسية والهندية وكلها فلسفات وثنية ، كما تكفى الإشارة إلى تعدد المجامع التى عقدت لمناقشة جوهر الدين المسيحى ، وطبيعة السيد المسيح (على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام) ، وتعدد المحاولات للتقريب بين المسيحية وبين الفلسفة الإفلاطونية الحديثة التى ظهرت للتوفيق بين عقيدة المسيحية والعقل (انظر : تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى للدكتور عبد المنعم ماجد) .

أضف إلى ذلك أن هذه الجيوب من اليهود والنصارى – بحكم وضعها كأقلية فى شبه الجزيرة العربية – بدأت تدخل حلبة اللعبة السياسية مستعينة بالقوتين الكبيرتين فى ذلك الوقت : الفرس والروم ، وقد كانتا فى صراع من أجل الاستيلاء على بلاد العرب ..

فارتمى اليهود في أحضان الدولة الساسانية فى فارس – وقد كانت يومئذٍ دولة وثنية مشركة – وظلوا صنائع لها فى شبه الجزيرة العربية ؛ لأنها هى التى كانت تحميهم ، وكانت تشجع ملوك حمير على اعتناق اليهودية ليكونوا سدًّا أمام الزحف الصليبى الرومانى القادم من الحبشة . وفى المقابل ارتمى الصليبيون فى أحضان الدولة الرومانية الشرقية بعد أن كانوا قد فروا من ظلمها وجورها ، وكانت الإمبراطورية الرومانية قد بدأت عملية التنصير فى جنوب الجزيرة العربية تمهيدًا للاستيلاء عليها ، بعد أن جعلت من الحبشة المواجهة لبلاد اليمن ولاية رومانية مسيحية ، وبالفعل نجح الرومان فى إقامة جالية صليبية فى نجران ، كما نجح صنائعهم من الأحباش فى غزو أجزاء من مملكة حمير ، وأرسل النجاشى ولاته المسيحيين ليحكموا باسمه فى اليمن ، واشتدت وطأتهم على أهل البلاد ، وعمَّ أذاهم الناس حتى حاول أبرهة الأشرم هدم الكعبة المشرفة فى عام الفيل فى حدود سنة ٥٧٠م ، فأذله الله وأرجعه مذمومًا مدحورًا .

وكان الصراع بين الجاليتين اليهودية والصليبية فى الجزيرة العربية واجهة من واجهات الصراع بين الإمبراطوريتين الكبيرتين آنذاك : الفرس والروم فى كل من جنوب الجزيرة

وشمالها وشرقها وغربها بما يملأ سجلات التاريخ ، وهو أكبر من أن يستعرض فى هذه الصفحات . (ارجع فى ذلك إلى كتاب « التاريخ الإسلامى العام » للدكتور على إبراهيم حسن) .

فإذا أضفنا إلى هذا الصراع الخارجى تلك الصراعات الداخلية الرهيبة التى مزقت القبائل العربية فى شبه الجزيرة ، وأشعلت الحروب الطويلة بينهم من مثل : **حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، ويوم كلاب الأول والثانى ، ويوم أواره الأول والثانى ، ويوم ذى قار** وغيرها كثير .. تلك الحروب التى مزقت الجزيرة ولم تمكن أهلها من إقامة دولة موحدة ، ودفعت بقبائلها إلى الاستنصار بأعدائها - الفرس والروم والأحباش - ضد بعضهم البعض ، مما أضاع هيبتهم فى نظر هاتين الإمبراطوريتين المتسلطتين : الفارسية فى الشرق والرومانية فى الغرب ، ولم يمكنهم من تحقيق أقل قدر من الاستقرار المعيشى ، فضلاً عن إقامة أية نهضة فكرية أو علمية أو تقنية ، فكانت الأمية سائدة فى شبه الجزيرة التى خيم عليها الجهل إلا من بعض المعارف الساذجة كالتنجيم والعرافة والأنساب والشعر والقصص ، وإن كان قد أقيم فى جنوب شبه الجزيرة بعض السدود المشيدة والمدن المحصنة والقصور الفاخرة والمعابد الفارهة .

ومن الإنصاف أن نشير إلى أنه وسط هذا الركام من الوثنيات والجهل والانحراف كانت هناك بقايا من النزعات الإنسانية الحميدة كالوفاء والكرم ، والإباء والنخوة ، والعفة والنجدة إلا أنه لافتقارهم إلى العقيدة الصحيحة كان العرب فى الجاهلية يئدون بناتهم بنوازع الدفاع عن العرض والشرف ، ويتلفون أموالهم بدافع المبالغة فى الجود والكرم ، ويثيرون أطول المعارك والخصومات بدوافع الإباء والشهامة . وكانت هناك قلة من عرب الجاهلية الذين حافظوا على الحنيفية السمحة التى توارثوها عن نبى الله إبراهيم وولده النبى إسماعيل (على نبينا وعليهما من الله السلام) فنبذوا الشرك بالله وفارقوا أهله ، والتزموا التوحيد الخالص لله - تعالى - ونزهوه عن جميع صفات خلقه . وعن كل وصف لا يليق بجلاله ، وعظموا الكعبة المشرفة ، وقاموا على خدمتها وسدنتها واحترام شعائرها ، والذود عنها ، وإكرام قاصديها ، وإجارة المستجير بها ، **وقد عرف هؤلاء بالأحناف** .

هكذا كان حال الجزيرة العربية إلى بعثة المصطفى ﷺ . فإذا خرجنا إلى العالم الخارجي وجدنا إلى الشرق دول الفرس والهند والصين ودول أواسط آسيا ، وقد كانت كلها غارقة إلى آذانها فى أنماط متعددة من الوثنية .. ولو أن هذه البلاد قد أسست حضارات مادية ، واشتمل فكرها على عدد من المبادئ الاجتماعية والقواعد الأخلاقية الوضعية ، والتى يمكن أن تكون بقايا لتعاليم سماوية سابقة ، إلا أن هذا الفكر لم يهتم بدراسة الكون وما فيه أو بمحاولة تفسيره أو بالبحث عن حقائق الأشياء فى جنباته بأسلوب منهجى منطقى مقبول ، فسادت فيه الخرافة ، وحكمته الأسطورة ، وتخبط فى رذائل الوثنية ومتاهاتها المتعددة .

فالفكر الصينى - كما سبق أن أشرنا - غلبت عليه نزعات وضعية تتمثل فى الكونفوشيوسية (Confucianism) والمانية (Menciusism) والتاوية (Taoism) والبوذية (Buddhism) وهى فى مجموعها تنزع إلى القول بوحدة الوجود ، ولا تهتم بدراسة هذا العالم ، وكلها أفكار وثنية وإن أسست على شىء من القواعد الأخلاقية .

والفكر الهندى القديم غلب عليه خليط عجيب من الآراء والتصورات .. بعضها ينزع إلى الزهد فى هذه الدنيا ، والبعض الآخر تحكمه تصورات غامضة من مثل مفهوم « **وحدة الوجود** » أو « **الوحدة الشاملة** » التى يجب أن يتلاشى فيها كل شىء جزئى فى هذا الكون ويفنى فيها كل وعى فردى ، أو **القول بتناسخ الأرواح** ، أو الادعاء بأن هذا العالم وهم ، وأن حياة الإنسان فى هذه الدنيا شر وألم يجب التخلص منه ، وهذه كلها تصورات أغرقت الهند فى وثنيات عديدة من مثل البوذية والهندوكية واليانية ، كان من شأنها أن تعوق نشأة أى علم منطقى منهجى أو أى فكر سوى .

وأما **بلاد الفرس** فكانت قد تمثلت حضارات الصين والهند وأواسط آسيا ، ووقعت تحت نفوذ اليونان فى عهد الإسكندر الأكبر أثناء سيطرة دولة السلوقيين عليها من ٣١٢ق.م إلى ٨٤ ق.م ، ثم تخلصت من النفوذ الهيلينى بقيام دولتى الأرشكانيين ثم الساسانيين . فكانت حضارتها خليطًا من وثنيات هذه الأمم جميعًا ، وانتشرت فيها الزرادشتية ، والمزدكية ، والمجوسية ، والمانوية ، وكفار الصابئة ؛ وهم عبدة الكواكب

والأوثان على اختلاف مللهم ونحلهم ، جنبًا إلى جنب مع جيوب متناثرة من اليهود والصليبيين .

و« **الزرادشتية** » ابتدعها المدعو « زرادشت » المولود فى سنة ٦٢٨ ق. م . بشمال إيران ، وقد هلك فى سنة ٥٥١ ق. م ، ويبدو أن دعوته انطلقت فى الأصل من دين سماوى قديم قائم على توحيد الله ، ولكن « زرادشت » انحرف به إلى الشرك بالله .

و« **المانوية** » أسسها « مانى » فى أرض العراق سنة ٢١٦م ، وكان قد نشأ فى أسرة نصرانية على الرغم من انتشار الزرادشتية بين أغلب قومه ، فكانت دعوته خليطًا بين الزرادشتية والنصرانية ، وادعى أنه هو النبى الذى بشر بمقدمه سيدنا عيسى - على نبينا وعليه من الله السلام - . ولقد مات « مانى » مقتولاً بأمر من الملك « بهرام » . ورغم قتله فإن دعوته الباطلة انتشرت شرقًا إلى الصين ، وغربًا إلى إسبانيا ، ووصلت إلى أوج انتشارها فى القرن الرابع الميلادى ، ثم اندثرت فى حوالى سنة ٦٠٠م .

و« **المزدكية** » ظهرت فى بلاد الفرس فى حدود سنة ٤٨٧م ، كدعوة إباحية أحلت النساء والأموال ، فاغتنم حثالات القوم ذلك والتفوا حول الشيطان « مزدك » وأتباعه وشايعوهم حتى عم الفساد وساد . وبلغ من وقاحة الشيطان « مزدك » أن أقنع الملك الفارسى « قباذ » ببذل زوجته لمن يشتهيها من الرجال ؛ وذلك ليعلم الناس صدق إيمانه بالمزدكية ، وكاد الملك أن ينجرف إلى هذا الانحطاط لولا أن ابنه وولى عهده « كسرى » دخل عليه باكيًا متضرعًا ومتوسلاً إليه ألا يذله بابتذال أمه وإهدار كرامتها وشرفها ، ولذلك أمر ولى العهد بقتل « مزدك » اللعين فقتله أتباع الأمير ، وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد حتى تم القضاء على مذهبه الفاسد .

وعلى الجانب الآخر من شبه الجزيرة العربية كانت إمبراطورية الروم ، وريثة الحضارة الهيلينية التى ورثت من قبل حضارة الفراعنة المصريين وحضارات ما بين النهرين. وقد كانت الحضارة الرومانية كما كانت معلمتها الحضارة اليونانية القديمة حضارة وثنية مشركة قامت على الاعتقاد الخاطئ بتعدد الآلهة ، وعبادة الأوثان ، وعلى التوهم بوجود

قوى خفية معينة فى أشياء هذا الكون الظاهرة وفى ظواهره المدمرة ، موكلة بأمور هذا الكون كلها ، صغيرها وكبيرها .

وظل الحال هكذا حتى سنة ٣٢٥م ، حين اعتلى عرش الإمبراطورية الرومانية قسطنطين الذى اعتنق المسيحية ، وحول الدولة إلى الصليبية ، وهى عقيدة اختلطت فيها تعاليم السيد المسيح (على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام) بكثير من الفكر الهيلينى – الرومانى الوثنى ، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى التشابه الكبير فى كثير من الشعائر والطقوس بين كل من المسيحية والديانات الوثنية الآسيوية والهيلينية والفرعونية من مثل التعميد والقرابين ، وتناول الطعام المقدس من الخبز والنبيذ ، ودقات النواقيس ، بل والاشتراك فى فلسفة أسطورية واحدة تدور حول الخطيئة والكفارة والفداء ، مؤداها «أن الإله يتعذب كما يتعذب الإنسان كى يمحو خطيئة ارتكبها أبو الإنسانية ، فى أول عهد له بالحياة ، ثم يموت كما يموت الإنسان ، ولكنه لا يلبث أن يتغلب على العذاب وكذلك على الموت ، فيبعث من جديد ليتمتع بحياة السعادة فى دار الخلود الأبدية » .. وفى ذلك يذكر « ول ديورانت » فى كتابه قصة الحضارة ما نصه : « **والراجح أن فكرة الإله المنقذ قد جاءت إلى غربى آسيا من بلاد فارس أو بابل ، فالتاريخ كله والحياة كلها قد صورتها الديانة الزرادشتية فى صورة صراع بين قوى النور المقدسة ، وقوى الظلمة الشيطانية ، ثم يأتى فى آخر الأمر منقذ هو (مثراس) ليحكم بين الناس ويقيم حكم العدالة والسلام الدائمين ، وكما يبدو لكثيرين من اليهود أن حكم روما كان جزءًا من انتشار الشر القصير الأجل .. »** .

وفى ظل الحكم الرومانى الوثنى عانى أتباع السيد المسيح – على نبينا وعليه من الله السلام – مختلف ألوان الاضطهاد ، والقمع ، والنفى ، والتشريد حتى اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية إرضاءً لأمه التى كانت قد سبقته إليها ، وكان ذلك فى مطلع القرن الرابع الميلادى حين انقسمت المسيحية إلى العديد من الملل والنحل التى كان منها اليعقوبية (Jacobism) أو الأرثوذكسية (Orthodoxism)، والنسطورية (Nasturism) ، الملكيونية (Malakanism) أو الكاثوليكية (Catholicism) وغيرها من الفرق التى بلغت اثنتين وسبعين

فرقة اشتد التطاحن بين أتباعها ، واتهم بعضها بعضًا بالكفر والضلال ، وحاول بعضها القضاء على البعض الآخر فى سلاسل من الحروب التى استمرت لعدة قرون ولاتزال بقاياها مشتعلة فى أماكن كثيرة من العالم منها شمال أيرلندة والبلقان .

أما بقية الدول من وراء الإمبراطورية الرومانية ، فكانت تحيا حياة بدائية همجية ، لا نعرف لها فكرًا محددًا ، ولا فلسفة حياتية معينة ، ولا عقيدة ثابتة واضحة ، ولا أثرًا حضاريًّا يذكر ، باستثناء مصر التى ربت الفكر الهيلينى الرومانى من قبل على موائد حضارتها الوثنية الكافرة ، ثم اكتوت بنيران الاحتلال الهيلينى ومن بعده الرومانى .. وقد عاثا فى أرض مصر فسادًا واستعبادًا ، ولم ينقذها من جور الرومان إلا شجاعة وعدالة جيش من جيوش محمد ﷺ .

هكذا كان وضع العالم قبل بعثة المصطفى ﷺ .. عالم غارق فى وثنية ضالة مضلة .. وضياع فى كل أمر من أموره الدنيوية والأخروية .. عالم يسوده فساد فى العقيدة ، وانحطاط فى القيم والأخلاق ، وتدن فى المعاملات وانهيار فى الفكر والمبادئ .. عالم فقد الصلة بنور الرسالات السماوية .. فتاه فى دياجير من الظلم والظلام حتى صار أحوج ما يكون إلى الهداية الربانية ، والرحمة الإلهية ، والتشريع السماوى من جديد ، فكانت البعثة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام - التى تصفها الحقيقة القرآنية بأنها جاءت رحمة للعالمين وذلك بقول ربنا - تبارك وتعالى - مخاطبًا خاتم أنبيائه ورسله - ﷺ - قائلاً له : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] .

ولسنا نعنى بذلك إلغاء ما كان للحضارات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ من إنجازات عمرانية ، ومن معارف ببعض أمور هذا الكون المادية ؛ مما يعتبر من ضرورات الوجود البشرى ، وهو من بقايا ما ورثته الأجيال المتعاقبة من ذلك العلم الوهبى ، الذى من الله تعالى به على أبينا آدم - على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام - ، وقد

---

(١) الأنبياء : ١٠٧.

أضيف إليه بالقطع قدر من المعارف المكتسبة التى جمعتها تلك الأجيال المتعاقبة ، جيلاً بعد جيل من حصيلة تجاربها فى هذه الحياة .. ولكنها كانت معارف تغلب عليها لهفة المنفعة المادية العاجلة ، وتغلفها أستار من الخرافة والأساطير ، والأوهام البعيدة عن المنطق ، وعن أية أسس استقرائية صحيحة ؛ ، ومن هنا فقد دارت فى إطار المهارات اليدوية ، والماديات الملموسة المدركة ، أو نزعت إلى الخيال والوهم والخرافة فى تفسيرها لكثير من أمور الكون وذلك لأن غالبية المفكرين فى الحضارات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ كانوا يرون العقل مصدرًا للحقائق مستغنيًا بذاته عن المشاهدة ؛ ومن ثم فقد كانوا يعتقدون فى إمكانة وصول الإنسان إلى ما يشاء من ضروب المعرفة عن طريق العقل وحده ، أى لم يكونوا يقولون بضرورة المشاهدة والاستنتاج لحصول العلم ، بل إن منهم من كان يرى أن المشاهدة تضل العقل لأن الحواس الإنسانية محدودة وغير مأمونة ، لذلك كانوا كثيرًا ما يكتفون فى طلب العلم وتعرف أسرار الفطرة بالجلوس فى خلوة والتفكير المجرد ، وكانوا يتخيلون إمكانية الوصول فى ذلك إلى قضايا كلية ، يزعمون أنها حقائق دون أن يقوم عليها دليل سوى فروض يفترضونها ابتداء ، ويزعمون أنها حق ، ويركنون إليها فى إثبات ما يتوصلون إليه من استنتاجات خيالية ، غير مرتكزة على حقائق يقينية ، وهو أسلوب تميز به الفكر الهيلينى بصفة خاصة ، وانتقلت عدواه إلى غيره من الحضارات.

وعلى الرغم من كل ذلك فإننا نؤمن بالحقيقة الإسلامية الثابتة التى مؤداها أنه فى تاريخ البشرية الطويل كانت هناك أجيال عاشت بنور الهداية الربانية ، وعرفت قيمة العقل والحواس ، وحكمة استخدامهما فى التعرف على هذا الكون فوصلت تلك الأجيال – بطريق الاستقراء المنطقى – إلى قدر من المعارف التى توارثتها الأجيال اللاحقة ، وكانت الأساس الذى انطلقت منه كل الحضارات القديمة التى انحرف أغلبها عن جادة الطريق فضلً وأضل .

obeikandl.com

الفصل الثاني

الفكر العلمى الإسلامى فى البعثة المحمدية الشريفة

من الاستعراض السابق ، يتضح لنا بجلاء كيف كانت البعثة المحمدية الشريفة تحولاً حاسمًا فى تاريخ البشرية ، فبعد عالم حكمته الأهواء ، والخرافات والأساطير ، وسادته الانحرافات السلوكية والضلالات الفكرية ، والمظالم الاجتماعية وإهمال المنطق والحس والعقل ، أو المبالغة فى اعتبار العقل وحده مصدرًا للحقائق مستغنيًا بذاته عن المشاهدة ، وغير ذلك من أنواع الضلال البشرى ، بعد ذلك كله بعث خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ ببيان من الله خالق الكون ومبدع الوجود .. بعث بالرسالة السماوية الخاتمة : نظامًا شاملاً كاملاً للحياة .. إلى الإنسان الذى هو من خلق الله ، والذى استخلفه الله فى الأرض ومنحه من مؤهلات الاستخلاف : الحس والعقل ، وطالبه باستخدامهما إلى أقصى حدود الإمكان ، وجعله مسؤولاً عن كل ذلك ، وسخَّر له الكون ، وأمره بالنظر فى جنباته ، وبالتفكير فى بديع صنع الله فيه ، وبالتعرف على طبائع الأشياء المكونة له ، وباستقراء القوانين الكونية والسنن الإلهية التى تحكمه ، وباستخدام استنتاجاته الكلية فى التعرف على خالقه ، وفى عمارة الحياة على الأرض والقيام بواجبات الاستخلاف فيها ..

obeikandl.com

قيام المسؤول المحاسب ، الذى سوف يسأل « **عن عمره فيم أفناه ، وعن شبابه فيم أبلاه ، وعن علمه فيم أفاد به ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه** »[1] .

وإذا كان الكون كله من خلق الله ، وكان عقل الإنسان وحواسه من صنع ذلك الخالق الحكيم ، وكان الدين بيانًا من رب العالمين ، فمن المنطقىّ أن يكون هناك توافق وانسجام بين ما جاء به الدين وبين القوانين والسنن الإلهية الحاكمة للكون والتى سخرت ويسرت لاستنتاجات عقل الإنسان وملكاته إذا استخدمت الاستخدام السليم .

ومن هنا كان إلحاح القرآن الكريم على الناس للنظر فى الكون والتفكير فى الكائنات لمعرفة طبائعها ونظم بنائها وإدراك الحكمة من خلقها ، واستنباط القوانين التى تحكمها ، واستخدام ذلك فى تسخيرها وعمارة الحياة الأرضية بها ، والاستدلال من ذلك كله على وجود الله - تعالى - على وحدانيته وعظيم قدرته ، وجليل حكمته ، ووجوب شكره على عديد نعمه ، والخضوع التام له وحده بالعبادة ، كما أمر- سبحانه وتعالى - .

ومن هنا أيضًا كان إقبال المسلمين على التفكير المنطقى السليم ، والبحث المنهجى القويم المرتكز على العقل والحس معًا ، وعلى استقراء قوانين الله فى الكون ، وعلى الاعتزاز بتراث الإنسانية عند كل الأمم السابقة ، فقاموا على جمعه ونقله إلى العربية ، ونقده وتطويره حتى انطلقوا إلى الابتكار والإضافة فجددوا المعرفة فى كل ميادينها ، واكتشفوا كثيرًا من المعارف الجديدة ، وأسسوا عديدًا من العلوم التى لم تكن معروفة من قبل ، وذلك كله تحقيقًا لأوامر الله ، وتطبيقًا لتوجيهات القرآن الكريم من تعظيم للعلم وأهله ، وتكريم للحكمة ، وأربابها ، ودعوة إلى استخدام الحواس والعقل إلى أقصى درجة ممكنة . وإلى تأسيس الإيمان على أسس راسخة من العلم المنطقى المنهجى الصحيح كما يتضح من الاستعراض التالى :

---

(١) أخرجه الترمذى فى جامعه ، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ .

١ – **نزلت أولى آيات القرآن الكريم أمرًا بالقراءة والكتابة وتعظيمًا لأدواتهما** ؛ لكونها من أهم وسائل التسجيل والتدقيق والضبط ، ومن ثم الحفاظ على التراث البشرى ، والمعاونة على الكشف العلمى ، ونشر الهداية والمعرفة بين الناس ، كما نزلت أمرًا بالتأمل فى الخلق (ومن أبرز صوره خلق الإنسان) واستقراء قوانين الله فى عملية الخلق ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى فى كتابه الكريم :

• ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۞ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۞ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۞ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

• ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾[2] .

• ﴿ وَٱلطُّورِ ۞ وَكِتَـٰبٍ مَّسْطُورٍ ۞ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴾[3] .

٢ – **كما نزل القرآن المجيد بتكريم العلم والعلماء بتقريره الواضح الصريح الذى يقول فيه ربنا – تبارك اسمه – :**

• ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[4] .

• ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[5] .

---

(١) العلق : ١–٥ .

(٢) القلم : ١ .

(٣) الطور : ١–٣ .

(٤) الزمر : ٩ .

(٥) المجادلة : ١١ .

• ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1] .

وهذا أمره سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ ومن ثم لكافة الخلق أن يطلبوا من الله الزيادة فى العلم : ﴿ ... وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾[2] .

ويمتن الحق تبارك وتعالى على رسول ﷺ بما علمه إياه عن طريق الوحى بقوله :

• ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[3] .

٣ – **ونزل من آيات القرآن الكريم ما يقرر أن إدراك معانيه لا يتسنى إلا للعلماء** ، وفى ذلك يقول ربنا – تبارك وتعالى – :

• ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[4] .

٤ – **وأن العلماء الذين يتأملون فى جنبات هذا الكون ، فيصلون إلى معرفة خالقهم ، من خلال التعرف على بديع خلقه يكونون من أقوى الناس إيمانًا به ، وأعظمهم إجلالاً لذاته ، وأشدهم خشية له** ، ونقرأ فى ذلك آيات عديدة ، منها قول الحق تبارك وتعالى :

• ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ

---

(١) البقرة : ٢٦٩ .
(٢) طه : ١١٤ .
(٣) النساء : ١١٣ .
(٤) العنكبوت : ٤٣ .

ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾[1].

٥ – **وأن رأى أهل العلم الحق له وزنه فى معيار الله – تبارك وتعالى – فى كل قضايا الحياة، بل وفى أهم قضايا الاعتقاد وهى قضية إيمان الإنسان بوجود الإله الواحد الأحد** ، الفرد الصمد الذى : ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[2] ، الخالق البارئ المصور الذى (ليس كمثله شىء وهو السميع البصير) ؛ فالقرآن يشير إلى شهادة العلماء ؛ أى رأيهم المؤسس على الدليل العقلى المنطقى المقبول والحجة البالغة المدعومة باستقراء الكون وما فيه من مختلف صور المادة والطاقة والحياة ، وما يحكمها من سنن مطردة لا تتوقف ولا تتخلف ولا تتبدل فى قضية وحدانية الله ، مقرونًا إلى شهادة الله جلت قدرته ، وشهادة الملائكة بوحدانيته فيول ربنا – تبارك اسمه – :

• ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3].

٦ – **وجاء القرآن ليقرر أن الإنسان مطالب دومًا بالنظر فى جنبات هذا الكون والبحث عن آيات الله فيه** ، وذلك فى مواضع عديدة ، نختار منها قول الحق وتبارك وتعالى :

• ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾[4].

---

(١) فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) الإخلاص : ٣ ، ٤ .
(٣) آل عمران : ١٨ .
(٤) يونس : ١٠١ .

• ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[1] .

• ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[2] .

• ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[3] .

٧ – **والقرآن إذ يقرر ذلك ، فإنه يعيب على الغافلين غفلتهم عن التفكير فى الكون وآيات الله فيه** ، فى مواضع كثيرة منها قوله – تعالى – :

• ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[4] .

وقوله – سبحانه وتعالى – :

• ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[5] .

٨ – والقرآن يصف الغافلين عن التفكير فى الكون ، وعن استخدام ما وهبهم الله تعالى من عقل وحواس فى تفهم آيات الله فيه ، واستخلاص دلالالتها على وجود الله وعلى علمه وقدرته وحكمته ، **ويصف القرآن الكريم كل هؤلاء الغافلين بأنهم**

---

(١) الأعراف : ١٨٥ .

(٢) العنكبوت : ٢٠ .

(٣) الذاريات : ٢٠ ، ٢١ .

(٤) يوسف : ١٠٥ .

(٥) الأنبياء : ٣٠ – ٣٢ .

كالأنعام بل هم أضل ، ويقرر أن جزاءهم جهنم ، عقابًا لهم على إهمالهم نعم الله التى أنعم بها عليهم ، وفى ذلك نقرأ قول الحق - تبارك وتعالى - :

• ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾[1] .

٩ – وإذا كان القرآن قد أمر بالنظر فى جنبات الكون ، باستخدام العقل والحواس فى تفهم طبيعته واستخلاص قوانينه ، واستخدام ذلك كله فى التعرف على الخالق العظيم والقيام بواجبات الخلافة فى الأرض ، وعاب على الغافلين عن ذلك غفلتهم ، **فإنه حارب التقليد الأعمى ، والجمود على الآراء الخاطئة الموروثة ، وحرَّم القضاء بالظن والهوى ، وطالب بتأسيس كل حكم على الدليل العقلى المقبول وعلى البرهان الجلى الواضح ، ونشد العلم النافع الصحيح القائم على أساس من مسؤولية الإنسان عن حواسه وعقله** ، فى مواضع عديدة ، نختار منها قول الحق تبارك وتعالى :

• ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[2] .

• ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾[3] .

---

(١) الأعراف : ١٧٩ .

(٢) المائدة : ١٠٤ .

(٣) الجاثية : ٢٤ .

• ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾[1] .

• ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾[2] .

• ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[3] .

---

(١) يونس : ٣٥، ٣٦ .
(٢) النجم : ٢٣ .
(٣) النمل : ٦١- ٦٤ .

• ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾[1] .

١٠ – والقرآن الكريم فوق ذلك ينهى عن كل ما يمكن أن يحول دون معرفة الحق وقبوله من مثل الكبر والغرور ، أو المجادلة على غير أساس أو منطق ، أو على غير توفر لأصول المعرفة اللازمة ويكفى فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

• ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ * لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

• ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[3] .

• ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4] .

---

(١) الإسراء : ٣٦ .

(٢) غافر : ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) لقمان : ٢٠ ، ٢١ .

(٤) يونس : ٣٩ .

١١ – **والقرآن الكريم كذلك يؤكد النظر فى الكون من جميع جوانبه ، النظر المتبصر المدقق المعتبر** ، الذى يمكن الإنسان من أن يرى فى اتساع الكون وفى ترامى أطرافه ، ودقة بنائه ، وانتظام حركته ، واطراد قوانينه ، وثبات سننه دليلاً ناطقًا بعظمة الخالق وقدرته ، وتأكيدًا لضآلة الإنسان أمام الكون ، وحاجة الإنسان دومًا إلى رحمة خالقه العظيم ورعايته ، وإشارة إلى ضرورة استقراء قوانين الكون والتعرف على سنن الله فيه ؛ لاستخدام ذلك كله فى عمارة الحياة والقيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض ، **ولذلك فإننا نجد القرآن الكريم يحض الناس على التفكير فى الكون بأسلوب منهجى سليم** ، وأوضح الغاية من ذلك ، أيما إيضاح ، ويحصى علماء التفسير أكثر من ألف آية صريحة من آيات القرآن الكريم ، تشير إلى الكون والكائنات والظواهر الكونية المختلفة ، هذا عدا آيات أخرى كثيرة تقرب دلالتها من الصراحة ، ومن أمثلة ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

• ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾[1].

• ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

---

(١) آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) البقرة : ١٦٤ .

• ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾[1] .

١٢ – وكتاب الله الحكيم يقدر بوضوح أنه بالإضافة إلى الأمر بالبحث فى المعلوم المنظور من أمور هذا الكون ، فإن الإنسان مطالب بالتسليم بالغيب المجهول له ، وينبهنا القرآن الكريم إلى ذلك فى آيات كثيرة نختار منها :

• ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾[2] .

• ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

١٣ – والقرآن الكريم فى استعراضه لأمور الكون يتناول كليات الأشياء ، تاركًا التفاصيل لاجتهاد الإنسان .. إلا أنه قد نبه إلى الجوانب الهامة فى دراسة أشياء الكون مثل الكم والكيف وهما من أسس الدراسات الكونية ، ويكفى فى ذلك أن نقرأ قوله تعالى فى الإشارة إلى كم الأشياء ؛ ذلك الكم المتعلق بالحجم والكتلة ، وبالزمان والمكان ، وبدرجات النمو والاندثار وبإحكام العلاقات بين هذه الأبعاد بحكمة التقدير الإلهى الدقيق :

• ﴿ ... وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾[4] .

• ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾[5] .

• ﴿ ... وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[6] .

---

(١) الأنعام : ٧٥ .
(٢) الحاقة : ٣٨، ٣٩ .
(٣) يس : ٣٦ .
(٤) الرعد : ٨ .
(٥) القمر : ٤٩ .
(٦) الفرقان : ٢ .

• ﴿ ... قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾[1] .

• ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[2] .

وبخصوص الكيف ؛ بمعنى هيئة الأشياء وتركيبها ، وخصائصها التى خصها الله تعالى بها ، ومجرى الظواهر وحدوثها عليها ، نرى القرآن الكريم ينبهنا إلى ذلك فى آيات كثيرة منها قول الحق - تبارك وتعالى - :

• ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾[3] .

• ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾[4] .

• ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴾[5] .

• ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾[6] .

١٤ - وقد جاء القرآن الكريم ليؤكد على أن لكل شىء فى هذا الكون فطرته السوية التى فطره الله عليها ، والتى تخصه وتميزه، ونقرأ فى ذلك قول الحق تبارك وتعالى :

• ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[7] .

---

(١) الطلاق : ٣ .
(٢) المؤمنون : ١٨ .
(٣) الغاشية : ١٧- ٢٠ .
(٤) الروم : ٥٠ .
(٥) الفرقان : ٤٥، ٤٦ .
(٦) ق : ٦ .
(٧) طه : ٥٠ .

• ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾[1] .

والخلق لغة هو إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء ، أى على غير مثال سابق ، والخلقة هى الفطرة ، ومن هنا كان فعل « خلق » ومشتقاته فى كتاب الله يشير إلى تقدير الله هيئة خاصة لكل شيء من أشياء هذا الكون ، وصفات محددة تميزه عما سواه .

١٥ – **ويشير القرآن الكريم إلى خضوع الكون بما فيه ومن فيه لقوانين مطردة لا تتخلف، ولا تتوقف، ولا تتبدل، مادام الكون قائمًا بإرادة خالقه ومبدعه،** ويفهم ذلك بوضوح من كثرة تردد اللفظ « سخر » ومشتقاته ، وذلك فى مواضع كثيرة نختار منها قوله تعالى :

• ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۞ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۞ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۞ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[2] .

• ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴾[3] .

---

(٢) الأعلى : ١ – ٣ .

(٣) يس : ٣٧ – ٤٠ .

(٤) الزمر : ٥ .

• ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] .

١٦ – **والقرآن يؤكد أن الله تعالى خلق كل شيء بالحق** ، أى حسب قوانين صحيحة وثابتة ، وبقدرة الحق المطلقة ، والحق هو الله سبحانه وتعالى ، وفى ذلك إشارة إلى ما ينتظم الكون وجميع مكوناته من نظام دقيق . وما لذلك من حكمة بالغة ، تتراءى لنا فى كثير من آيات الكتاب المبين التى نختار منها قوله تعالى :

• ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

• ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

١٧ – **والقرآن الكريم فوق ذلك يقرر أن لكل شيء فى الكون أجلاً مسمى ، ونهاية محتومة ، أى زمنًا محددًا لا يتعداه** ، بمعنى أن البعد الزمنى فى هذا الكون هو من أموره المهمة ، فليست المادة والطاقة والمكان فقط هى التى تدخل فى نظام العالم جملة وتفصيلاً ؛ لأن ذلك كله ينتظمه البعد الزمنى ، وهذا ما تشير إليه آيات كثيرة منها قوله تعالى :

---

(١) الجاثية ١٢ ، ١٣ .

(٢) يونس : ٥ .

(٣) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ .

• ﴿ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴾[1] .

• ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾[2] .

١٨ – ثم يقرر القرآن الكريم أن الكون الذى نحيا فيه حادث ، وأنه قد تكون على صورته التى نراها بأمر من الله – تعالى – ، وأنه بمادته وطاقته ومكانه وزمانه وما يعكس كل ذلك من ظواهر وما يحكمه من قوانين .. خاضع للقدرة الإلهية التى أبدعته ، وأن الله وحده هو الذى يملك تغيير نظام الكون وقوانينه ؛، بمعنى أن قوانين الكون المطردة ليست واجبة ولا مطلقة ؛ لأنها خاضعة لقدرة الله – تعالى – وهذا مجال من المجالات التى يضل فيها الفكر البشرى كلما ابتعد عن الهداية الإلهية ، والآيات فى ذلك كثيرة نختار منها قول الحق تبارك وتعالى :

• ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾[3] .

• ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[4] .

١٩ – ويقرر القرآن الكريم كذلك أن الإنسان يولد فى هذه الدنيا وليس له علم بأى شىء فيها ، ولكنه يولد مزودًا بوسائل اكتساب المعرفة وملكات الاستعداد لها ..

---

(١) الأحقاف : ٣ .

(٢) الروم : ٨ .

(٣) الأنبياء : ١٠٤ .

(٤) إبراهيم : ٤٨ .

ومن ثم فإن عليه استخدام تلك الوسائل والملكات إلى أقصى إمكاناتها فى سبيل التعرف على هذا الكون والتعلم من بديع صنع الله فيه ، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

• ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[1] .

٢٠ – والقرآن الكريم إذ ينبه إلى العقل والحواس ، وإلى ضرورة اتباع الحكمة وحسن التبصر فى النظر فى أمور هذا الكون ، والتعرف على مكوناته ، واستقراء قوانينه وسننه بمنتهى الدقة والأمانة والإتقان فى حدود القدرة ، وإلى استخدام ذلك فى عمارة الأرض ، وفى التوصل إلى معرفة الخالق العظيم **ليضع الأسس الأصيلة لمنهج البحث العلمى** ، فالآيات القرآنية الكثيرة التى تحض على النظر فى آيات الله فى الكون وعلى تعرف أسرار الخلق – وهى تفوق فى عددها ألف آية صريحة – هى فى الواقع توجيه للعقل البشرى إلى مجالات العلوم البحتة والتطبيقية – العلوم الكونية – ، التى تتميز بكونها النافذة المباشرة التى يرى من خلالها الإنسان الفطرة السوية التى عليها فطر الله كل ما فى الكون ؛ **وهذه الرؤية لا تصيب إلا إذا قامت على التجرد للحق والصدق فيه والمجاهدة فى سبيله والاستمساك به والتعاون عليه، وكلها قضايا من صميم التعاليم القرآنية ومن أسس المنهج العلمى الاستقرائى الصحيح ؛ وعلى ذلك .. فإن القرآن الكريم هو واضع المنهج العلمى الصحيح** الذى انتهجه المسلمون وأقاموا به نهضة علمية وفكرية أصيلة كانت هى أساس النهضة العلمية المعاصرة حين تعلمت بقية الأمم منهم ذلك المنهج بعد نزول القرآن بقرون عديدة ، كما أن العلم التجريبى الاستقرائى الصحيح هو تنفيذ لأوامر الله فى كتابه العزيز وهو فى صميمه قرآنى الروح .

---

(١) النحل : ٧٨ .

ولقد كان فى توجيه القرآن الكريم للإنسان إلى تعرف ذاته ، وتعرف خلق الله المنتشر فى الكون المترامى من حوله ، واستخدام ذلك كله فى التعرف على الله ، سبب فى انتقال المسلم من مرحلة المعرفة الأولية المشتتة إلى مرحلة المعرفة الكلية الواعية المنظمة التى تدور حول الواقع الحسى والنفسى للإنسان معًا ، وللكون ولجميع ما فيه ، ولا تتوقف عند الحدود المدركة المحسوسة فقط ، بل تتجاوزها إلى الاستدلال بها على ما وراءها من قدرة وحكمة وعلم وتدبير ؛ حتى يتمكن الإنسان من الوصول إلى فلسفة العلوم وهى التفسير الأعلى للكون ونظامه ، والمعرفة الحقة بوجود الله الخالق البارئ المصور من خلال التأمل الفاحص لكل ما خلق ، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى قول الحق تبارك وتعالى :

- ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[1] .

من هذا الاستعراض يتضح لنا جليًّا أن شروط البحث العلمى الصحيح والحوافز عليه قد توافرت لمن قرؤوا القرآن الكريم وآمنوا به ، فتدبروا آياته ، واسترشدوا بتوجيهاته، وانتفعوا بما تضمنه من أصول وأسس ثابتة لاكتساب المعرفة الصحيحة ، ومن أبرزها فكرة الحق بأوسع معانيها (فيما يختص بالعقيدة والعبادة وبالمعاملات وبالأخلاق)، وآيات القرآن التى تنبه إلى الحق وإلى العلم كثيرة جدًّا باعتبار الحق والعلم يجافيان الباطل والجهل وما يحتويان من ظنون وأوهام وأخطاء ، وتكفى فى ذلك الإشارة إلى قوله تعالى:

- ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ ﴾[2] .
- وقوله : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ ﴾[3] .
- وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[4] .

---

(١) الذاريات : ٢٠، ٢١ .
(٢) الإسراء : ١٠٥ .
(٣) البقرة : ١١٩ .
(٤) النساء : ١٧٠ .

٢١ – أشار القرآن الكريم إلى الأرض فى أربعمائة وواحد وستين (٤٦١) موضعًا منه تحوى العديد من الحقائق العلمية عن الأرض (انظر كتاب الأرض فى القرآن الكريم للمؤلف) . وكانت هذه الإشارات ملهمة لعدد من علماء الأمة فى الوصول إلى العديد من التصورات الصحيحة عن هذا الكوكب .

هذا .. وقد جاءت أحاديث رسول الله ﷺ فى فضل العلم وأهله ، وحث الناس على طلبه ، وآداب ذلك الطلب وشروطه ، تأكيدًا لوضوح هذه المعانى الواردة فى كتاب الله عند عامة المسلمين وخاصتهم ، وأحاديث رسول الله ﷺ فى هذه المعانى أكثر من أن تحصى هنا ، وقد أفرغت لها من المجلدات ما يفوق حجم هذا الكتاب بأسره ، من مثل كتاب « جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله للإمام القرطبى » وهو فى جزئين ، فاق عدد صفحاتهما الأربعمائة ، نقتطف منه من أقوال المصطفى صلوات الله وسلامه عليه فى الحث على العلم قوله :

– « **طلب العلم فريضة على كل مسلم** »[١] .

– « **اغدُ عالمًا أو متعلمًا أو مستمعًا أو محبًّا ، ولا تكن الخامسة فتهلك** »[٢] .

– « .. **طالب العلم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر** »[٣] .

– « **ما من رجل يسلك طريقًا يلتمس فيه علمًا إلا سهّل الله له طريقًا إلى الجنة** »[٤] .

– « **إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يطلب** »[٥] .

– « **من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع** »[٦] .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم ، ٢٩٧/٢ .
(٢) أخرجه الدارمى فى سننه .
(٣) أورده المناوى فى فيض القدير ، ٤/ ٣٤٩ .
(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب العلم .
(٥) أخرجه الترمذى فى جامعه ، كتاب الدعوات .
(٦) أخرجه الترمذى ، كتاب العلم .

- « فضل هذا العالم الذى يصلى المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الـذى يصوم النهار ويقوم الليل كفضلى على أدناكم رجلاً »[١] .

- « فضل العالم على المجتهد مائة درجة »[٢] .

- « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء »[٣] .

- « للأنبياء على العلماء فضل درجتين وللعلماء على الشهداء فضل درجة »[٤] .

- « لئن تغدو فتتعلم بابًا من العلم خير لك من أن تصلى مائة ركعة »[٥] .

- « إذا جاء الموت طالب العلم وهو على حاله مات شهيدًا »[٦] .

- « لكل شيء عماد ، وعماد هذا الدين الفقه ، وما عبد الله بشيء أفضل من فقـه فى الدين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد »[٧] .

- « ما من عبد يخرج يطلب علمًا إلا وضعت له الملائكة أجنحتها وسلك به طريقًا إلى الجنة، وإنه ليستغفر للعالم من فى السماوات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى البحر، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سـائر الكواكـب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ولكنهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[٨] .

---

(١) أخرجه الترمذى عن أبى أمامة صحيح بلفظ : « فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم رجلاً » .

(٢) مجمع الزوائد للهيثمى بلفظ سبعين درجة .

(٣) أخرجه ابن ماجه ، كتاب الزهد .

(٤) الكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى .

(٥) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة للإمام الكتانى .

(٦) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى .

(٧) أخرجه الدار قطنى فى سننه ، كتاب البيوع .

(٨) أخرجه الترمذى ، كتاب العلم .

- « إن الله وملائكته وأهل السماوات والأرض حتى النملة فى جحرها وحتى الحوت فى البحر ليصلون على معلم الناس الخير »[١] .
- « من طلب علمًا فأدركه كتب الله عز وجل له كفلين من الأجر ، ومن طلب علمًا فلم يدركه كان له كفل من الأجر »[٢] .
- « يبعث الله العباد يوم القيامة ، ثم يميز العلماء ، ثم يقول لهم : يا معشر العلماء إنى لم أضع علمى فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم »[٣] .
- « العالم أمين الله فى الأرض »[٤] .
- « أيما ناشئ نشأ فى طلب العلم والعبادة حتى يكبر وهو على ذلك كتب الله له أجر سبعين صديقًا »[٥] .
- «من جاء أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة»[٦].
- « مجلس فقه خير من عبادة ستين سنة »[٧] .
- « ليسير الفقه خير من كثير العبادة ... »[٨] .
- « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد »[٩] .
- « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[١٠] .

---

(١) أخرجه الترمذى ، عن أبى أمامة صحيح .
(٢) مشكاة المصابيح للتبريزى .
(٣) إتحاف السادة المتقين للزبيدى .
(٥) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى .
(٦) أخرجه الطبرانى فى الكبير عن أبى أمامة .
(٦) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى .
(٧) انظر : الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادى .
(٨) المصدر السابق .
(٩) أخرجه الترمذى ، وابن ماجه .
(١٠) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء .

- ومن الأقوال المأثورة عن معاذ بن جبل (رضى الله عنه) موقوفًا قوله :

- « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل الجنة ، والأنس فى الوحشة ، والصاحب فى الوحدة ، والمحدث فى الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والدين عند الأخلاء ، يرفع الله به أقوامًا فيجعلهم فى الخير قادة وأئمة ، تقتص آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، ليستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار ، والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، التفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال من الحرام ، هو إمام العمل والعمل تابعه ، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء »[1] .

وفى تعليق على ذلك الموقف ذكرت فى كتاب لى بعنوان « أزمة التعليم المعاصر : نظرة إسلامية » ص ٨٥ - ص ٩١ ما نصه :

« والإسلام بطبيعته يفرض على الأمة التى تعتنقه أن تكون أمة مثقفة مدركة واعية ، لأن حقائق هذا الدين الربانى من عقيدة وأخلاق وعبادات ومعاملات .. بتفاصيلها الدقيقة ، وأصولها العميقة ليست طقوسًا مبهمة تنقل بالتقليد والوراثة .. وليست تمائم وتعاويذ تحمل بغير فهم أو إدراك .. وليست سحرًا أو شعوذة يعتمد على الإيحاء والإيهام .. ولكنه وحى ثابت محدد ، يقينى من الله خالق الخلق وموجد الوجود ، وحقائق تستخرج من هذا الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذى قامت الأدلة الثابتة على صدق وحيه ، ودقة تنزيله ، وإحكام حروفه وكلماته وآياته ، وإعجاز حكمه وتشريعه وإشاراته ، وإحاطة علمه وصدق نبوءاته ، ودقة حفظه فى الصدور قبل

---

(١) كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال للمتقى الهندى .

الصحائف .. بينما ضيعت الكتب السماوية السابقة كلها أو حرّفت وبدّلت .. وهذا هو القرآن الكريم يأمر قارئيه بقول ربنا - تبارك وتعالى - :

• ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾[1] » .

« ولا يتم فهم المسلم لدينه إلا بفهم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .. ولا يمكن أن يتم له ذلك بغير علم وفهم ودراسة وتمحيص وبغير تعليم وتربية وتدريب ، وفى ذلك قال **الإمام القرطبى** : « قد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ فى خاصته بنفسه ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه على أهل ذلك الموضع ».. وعلى ذلك فقد شغف المسلمون بتعلم العلم ونشره فى كل مكان حلوا به ، فكانوا إذا فتحوا بلدًا من البلاد سارعوا إلى بناء المساجد ، ومراكز تحفيظ القرآن، ومدارس العلم ومجالسه وحلقاته ، باعتبار ذلك من مقتضيات الرسالة التى اضطلعوا بها لإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وبذلك قامت الحضارة الإسلامية على أساس من العلم بمدلوله الشامل : الوحى السماوى المنزل ، والعلم البشرى المكتسب ، وميراث الإنسانية فى هذين المجالين » .

« وعلى ذلك فقد اهتم المسلمون منذ مطلع العهد النبوى بالتعليم ، واعتبروه الوسيلة الرئيسية لنشر الدعوة ، وأسسوا للتربية مراكز ، وقواعد ونظمًا ومناهج وطرائق، وكتبوا فى العلاقة بين المعلم والمتعلم ، والأخلاق الواجبة لكل منهما ، والحال التى تنال بها العلم ، والعوائق التى يمكن أن تقف فى سبيل ذلك ، مما يعتبر أسسًا ثابتة فى مناهج التربية بمقاييسها العصرية ، وقد كانت التربية تبدأ فى الصغر فى وسط الأسرة بالمحاكاة والتقليد والممارسة ؛ لأن من واجب الوالدين فى الأسرة المسلمة تعليم أطفالهما الشهادتين بمجرد استطاعتهم القدرة على النطق السليم ، وتعليمهم مبادئ الإسلام

---

(١) التوبة : ١٢٢ .

وعباداته ، وسير الأنبياء والصالحين بطريقة مبسطة تستوعبها قدرات عقولهم وإدراكهم وحسهم ، ثم ينتقل الطفل بعد ذلك إلى الكتّاب ، والكتاتيب التى كانت أساسًا مدارس لتحفيظ القرآن وتأديب الصغار، وكانت ملحقة بالمسجد أو مبنية بالقرب منه ، وانتشرت بالقرى والنجوع والمدن والأمصار ، وكانت تستقبل الصغار من سن الإدراك إلى ما دون سن التكليف ليتعلموا فيها القرآن الكريم وأصول القراءة والكتابة وتحسين الخط وعلوم الحساب ورواية الأخبار ، وشيئًا من الشعر بما يتباين وتباين المعلمين واختصاصاتهم والمجتمعات ومتطلباتها ؛ إلا أن الطفل كان يتم حفظ القرآن ويتعلم دقة تلاوته فى سن لا تكاد تصل العاشرة ، وبعد ذلك ينتقل النابهون من خريجى الكتّاب إلى حلقات العلم فى المساجد حيث يتقنون علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والفلسفة والمنطق وغيرها .. » .

« ثم ينتقل المتميزون من هؤلاء إلى حلقات المناظرة والجدل فى الأماكن العامة أو فى حوانيت الورَّاقين - المكتبات - ؛ حيث كانت تعقد المناظرات وتروى الأشعار ، وتعرض القضايا العلمية والفكرية والفلسفية .. » .

« وكان من هؤلاء المتعلمين من يعكف على إلقاء الدروس فى المساجد أو المدارس ودور العلم الأخرى ، ومن وصل به علمه وشهرته إلى مجالس الحكام والخلفاء حيث كانت أكثر مجالس العلم تخصصًا وتميزًا وشهرة ، وكان منهم من ضرب فى الأرض باحثًا وراء التراث الإنسانى جامعًا ومدققًا وفاحصًا وناقدًا .. وكان هناك المعلمون والمؤرخون وكبار المؤدبين ، وهى مراحل متدرجة فى السلك التربوى ، وكان المجتمع كله يولى رجال العلم وطلابه من الرعاية والتقدير والتبجيل ما حدا بالناس إلى الإقبال على العلم والاستزادة منه ، وبناء معاهده مراكزه ومكتباته ، ووقف الأموال والممتلكات عليه .. وعلى ذلك لم يكد يطلع القرن الهجرى الثانى ، حتى كان هناك جهاز تربوى كامل منتشر فى كل جزء من أجزاء الدولة الإسلامية المترامية الأطراف والممتدة من بخارى وسمرقند شرقًا إلى الأندلس غربًا ، وابتداءً من المساجد وحلقات تحفيظ القرآن إلى الكتاتيب والمدارس والجامعات ، إلى مجالس العلم ودوره ، وبيوت الحكمة ومكتباتها .. وغير ذلك من وسائل نشر المعرفة التى استطاعت أن تنشر نور العلم ، وأن تبنى الإنسان الصالح ..

الجدير بالاستخلاف فى الأرض ، وأن تقيم به المجتمع الفاضل المؤسس على تحكيم شريعة الله وعلى تقواه ، وكل ما يتبع ذلك من عدل اجتماعى ، وتسامٍ إنسانى ، وفهم حقيقى لرسالة الإنسان فى هذه الحياة » .

« واستطاع هذا النظام التربوى الإسلامى استيعاب كل المعارف الإنسانية المتاحة من الحضارات السابقة على بعثة المصطفى ﷺ والمعاصرة له من مثل حضارة الهند والفرس وما بين النهرين ومصر والروم والإغريق وغيرها .. انطلاقًا من التصور الصحيح بأن هذا هو تراث الإنسانية جمعاء ، ومن الواجب المحافظة عليه ونقده وتطويره .. وبالفعل استطاعت الحضارة الإسلامية جمع شتات هذا التراث ونقده وتطويره وتنميته بعديد من الإضافات الأصيلة ، وإثراءه بالنظرة الإسلامية الشاملة للإنسان والكون وعلاقتهما بالخالق العظيم ، كما استطاع ذلك النظام التربوى المحافظة على هذا التراث الإنسانى ونقله إلى الأجيال اللاحقة فى إطار إسلامى إنسانى متكامل ، على مدى فترة زادت عن عشرة قرون » .

« فلقد كانت مساجد المسلمين أماكن للصلاة ومجالس للعلم ، ومراكز لانطلاق قوافل الجهاد فى سبيل الله ، وتكفى الإشارة إلى أن كبار العلماء والأئمة المسلمين قد تلقوا العلم فى المساجد ، فمالك بن أنس تعلم فى مسجد المدينة ، وابو حنيفة فى مسجد الكوفة ، والشافعى فى مسجد الفسطاط ، وابن حنبل فى مسجد بغداد ، وغيرهم من رجال العلم والفكر والرأى ممن أضافوا إلى الفكر الإنسانى وأثروه . كذلك تكفى الإشارة إلى أن أقدم جامعات العالم وهى **جامعات الزيتونة والقرويين والأزهر الشريف** ، قد نشأت وعلمت فى المسجد .. وأن **بيت الحكمة** الذى أسسه هارون الرشيد فى منتصف القرن الثانى الهجرى ، وجهزه بمكتبة ضخمة ضمت تراث الهند وفارس واليونان كان من أكثر مراكز العلم أثرًا فى نقل الثقافات القديمة ونقدها وتطويرها ، وأن **المدارس النظامية** بدأ المسلمون فى تأسيسها منذ القرن الثانى الهجرى ، ومن أمثلتها **مدرسة المأمون فى خراسان ، ومدرسة ابن فورك فى نيسابور ، ومدرسة الطب التى أسسها عبد الرحمن الناصر فى قرطبة** فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، **ومدرسة ساليرى التى أسسها**

المسلمون فى إيطاليا ، **والمدرسة النظامية فى بغداد** فى منتصف القرن الخامس الهجرى وهى أول مدرسة قرر فيها رواتب للمعلمين ، وبنيت فيها مساكن للطلبة ونظم فيها أول منهاج تخصصىّ فى الدراسات الإسلامية ، وبها اقتدى الناس فى العراق والشام ومصر وخراسان وغيرها من بلاد المسلمين التى شهدت نهضة تعليمية رائدة انتشرت فيها المعاهد العلمية المختلفة من دور لدراسات القرآن والحديث ، ومدارس للفقه ، ومراكز لتعليم الطب والهندسة والفلك والحساب والكيمياء والعقاقير ، وغيرها من مختلف أنواع المعارف والعلوم ، وإن **جامعة الزيتونة** التى أسست فى تونس سنة ٧٩هـ ، **وجامعة القرويين** التى أسست فى مدينة فاس (بالمغرب) سنة ٢٤٥هـ ، **والأزهر الشريف** الذى أسس بالقاهرة سنة ٣٦١هـ كانت مراكز للعلوم على اختلاف أنواعها ، وأول نماذج للجامعات العلمية فى العالم ، كما كانت هناك **دور الحكمة** - ومن أمثلتها دار الحكمة التى أسسها المأمون فى بغداد سنة ٢١٥هـ - **ودور العلم** التى كان من أشهرها دار العلم فى الموصل (٢٢٢هـ) وفى بغداد (٣٨٣هـ) وفى القاهرة (٣٩٥هـ) » .

« وقد زودت دور الحكمة والعلم هذه بالمكتبات الواسعة ، والاختصاصيين الأكفاء من معلمين ومترجمين ، وجمعت لها المخطوطات من كل حدب وصوب ، وزودت بالأجهزة والمعدات ، وكانت مراكز عليا للدراسة والبحث ، ولم تقتصر على دراسات القرآن والحديث والفقه والسيرة وأصول الدين وتفاصيل اللغة وقواعدها وآدابها فقط ، بل اهتمت أيضًا بالطب والهندسة والعلوم الكونية والتجريبية ، فدار الحكمة فى بغداد كان لها مدرسة خاصة لتدريس الفلك ، وأنشئ بجانبها مرصد فلكى ، ومكتبة كبيرة للمخطوطات ، ووقفت عليها الضياع والأراضى والأموال ، ووصلت فى زمانها إلى أعلى مستوى للمعرفة عرفه إنسان ذلك العصر ، واجتذبت كثيرًا من محبى المعرفة من شتى أقطار الأرض ، وانغمس رجالها فى دراسات مستفيضة فى مجالات الطب والهندسة والكيمياء ، والفلك والرياضيات والجغرافيا والفلسفة ، بالإضافة إلى دراسة الشريعة وعلوم الدين وفقه اللغة وآدابها .. وتميزوا بمذاهب فريدة فى طرائق البحث وأساليب الابتكار فى كل هذه المجالات » .

« وقد قامت تلك المراكز التعليمية على تعددها ، وتنوعها ، واختلاف أساليبها بتخريج عديد من العلماء المسلمين الذين حملوا تراث البشرية ، وقاموا بنقده وتطويره ، وإثرائه على مدى عشرة قرون أو يزيد وكان منهم أئمة فى علوم القرآن ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والفلسفة ، والعلوم الإنسانية ، والعلوم البحتة والتطبيقية ، ومؤسسون لكثير من المعارف الحديثة مثل علم الاجتماع الذى بدأه ابن خلدون » .

وكانت مؤلفات المسلمين – على تعدد مجالاتها – تتخذ من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول الأمين ﷺ دليلاً على وجوب البحث العلمى الدقيق فى مختلف مجالات المعرفة ، وتأصيلاً لقواعد ذلك البحث العلمى وأساليبه ، ومنهجًا متميزًا فى استنباط الآراء واستخراج الأدلة ، وقد يسر ذلك عليهم اشتمال القرآن الكريم على القواعد الأساسية لجميع موضوعات التفكير العلمى والفلسفى ، وعلى كثير من المصطلحات اللازمة لذلك ، والشواهد هنا أكثر من أن تحصى ، وتكفى فى ذلك قراءة شىء من هذا التراث الإسلامى البديع لكى يدرك المرء مقدار ما أوحته آيات القرآن المجيد ، وأحاديث خاتم الأنبياء والمرسلين – ﷺ – لعلمائنا السابقين من المعانى والعناصر والمصطلحات ، فضلاً عن الحوافز من أجل كسب المعرفة الحقة ، والمثابرة على جمعها وتطويرها . والصبر على تحليلها ونقدها ، والمجاهدة فى تدوينها وتعليمها ونشرها ، واعتبار ذلك كله عملاً تعبديًا خالصًا لله ، يرجى به وجهه – سبحانه وتعالى – ، ويُتَقَرَّب به إليه ..

وكان من العوامل التى ساعدت على سرعة قيام النهضة العلمية الإسلامية ذلك الإيمان الصادق بالأخوة الإنسانية الذى غرسته الدعوة المحمدية الشريفة فى نفوس المسلمين «**كلكم لآدم وآدم من تراب**»[1] ، وبوحدة المعرفة الإنسانية وعالمية التراث الإنسانى «**اطلبوا العلم ولو بالصين ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم**»[2] وبتعظيم العلم والحكمة « **الحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أولى الناس بها** »[3] فى ظل من التسامح

---

(١) أورده المناوى فى فيض القدير ، ٥/ ٥١ .

(٢) أورده العجلونى فى كشف الخفا ومزيل الإلباس ، ١/ ١٥٤ .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفا ومزيل الإلباس ، ١/ ٤٣٥ .

الدينىّ الذى قلّما عرفته البشرية من قبل ، والذى كان ولا يزال شعاره الصادق قول ربنا - تبارك وتعالى - : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾[1] ، وعلى ذلك فإنه بمجرد استقرار الأمر للدولة الإسلامية قام علماء المسلمين بجمع تراث الإنسانية فى مختلف مجالات المعرفة ، وعند مختلف الأمم ، وفى مختلف الأماكن والعصور ، وعملوا على ترجمته إلى اللغة العربية ، ثم على نقده وتطويره ، وفرز غثه عن سمينه ، وبعد ذلك عمدوا إلى تدوينه ونشره بعد أن أضافوا إليه إضافات أصيلة كثيرة ، وقد أدى ذلك إلى استحداث حركة فكرية وعلمية لم يسبق للتاريخ أن سجل لها مثيلاً ، على الرغم من تسليمنا بأن الحضارات المتلاحقة يرث بعضها بعضًا ، وهى حقيقة تاريخية تؤيدها سير الحضارات الإنسانية كلها ، إلا أن ذلك الميراث قد يتم على أساس تقليدى جامد غير متبصر ، أو بصورة تدميرية همجية غير مستنيرة ، أو بأسلوب انتقائى اصطفائى ناقد وهو الأسلوب الوحيد الذى يمكن أن يؤدى إلى إثراء المعرفة الإنسانية وإنعاشها ، وهو الأسلوب الذى اتبعته الحضارة الإسلامية ، انطلاقًا من إيمانها بالأخوة الإنسانية ، وبعالمية التراث الإنسانى ووحدته ، ومن تقديسها للحق ، وإجلالها للعلم والحكمة ، واحترامها للحرية الشخصية لكل إنسان .

انطلاقًا من ذلك كله فقد ترك المسلمون جميع المدارس والمراكز والمعابد التابعة لأهل الكتاب فى كل البلاد التى امتد إليها سلطان الدولة الإسلامية تمارس أنشطتها فى حرية كاملة ، دون أن تُمسَّ بسوء ، وكانت هذه فى أغلبيتها مراكز للثقافة اليونانية / الرومانية أو الفارسية / الهندية ، والتى كان من أهمها مقار السريان المسيحيين فى الرها ، ومقار السريان الوثنيين الذين عرفوا بكفار الصابئة فى حران ، ومدرسة جنديسابور التى أنشأها فى فارس بعض النساطرة الفارين من الدولة البيزنطية ، هذا فضلاً عن عديد من الأديرة التى كانت منتشرة فى كل من بلاد ما بين النهرين والشام ، وبلاد الروم ، ومصر ، وأغلبها كانت تضم مكتبات تحفل بشىء من تراث الحضارات السابقة من مثل مكتبة

---

(١) البقرة : ٢٥٦ .

أنطاكية ومكتبة الإسكندرية الشهيرتين وإن كانت المكتبة الأخيرة قد أحرقها البيزنطيون من قبل .

هذا بالإضافة إلى المخطوطات العديدة التى غنمتها جيوش المسلمين فى فتوحاتها الكثيرة لكل من بلاد الفرس والروم ، والتى كان من أكثرها عددًا مخطوطات كل من عمورية وأنقرة .

وقد كان المسلمون طوال البعثة المحمدية مشغولين بالعلوم الدينية وبنشر رسالة الإسلام ، إلا أنهم سرعان ما توجهوا إلى العلوم الكونية والإنسانية ، التى بدأوا فى الأخذ بأسبابها منذ القرن الهجرى الثانى إن لم يكن قبل ذلك . واستمر الاهتمام بهذه المعارف فى التزايد حتى أسس الخليفة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٢- ٨٢٣م) بيت الحكمة فى بغداد سنة ٢١٥هـ/ ٨٢٠م ، وجعل له مكتبة ضخمة ، وميزانية كبيرة ، وجمع فيه عددًا هائلاً من النساخ والمترجمين الذين أتقنوا عدة لغات ، وكلفهم بنقل كل ما كان قد وصل إلى أيدى المسلمين من تراث الأمم السابقة إلى اللغة العربية .

ولم يتردد أمراء المسلمين فى إرسال العلماء والنساخين إلى مختلف أنحاء الأرض بحثًا عن المخطوطات التى تسجل تراث الإنسانية ، لشرائها أو نسخها ، ومن ثم تكليف كل قادر على ترجمتها أيًا كانت عقيدته أو جنسيته أو لغته .

وقد استمرت حركة الترجمة هذه من منتصف القرن الهجرى الثانى (حوالى ١٣٣هـ/ ٧٥٠م) إلى منتصف القرن الهجرى الثالث تقريبًا (حوالى ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م) حين تمت ترجمة أمهات الكتب من اللغات السريانية والآرامية، واللاتينية ، واليونانية ، والفهلوية، والسنسكريتية ، والقبطية وغيرها إلى اللغة العربية ، وبفضل حركة الترجمة الحية هذه حفظ كثير من تراث الهند وفارس واليونان والرومان وغيرهم ، والذى لا يكاد يوجد لكثير منه أثر اليوم إلا فى التراجم العربية .

وفى مواكبة حركة الترجمة هذه ظهرت أجيال من علماء المسلمين الذين نظروا فى كل علم وفن ، وكتبوا فى كل أنواع المعرفة الإنسانية بعد أن كانوا قد أفاضوا فى دراسات العلوم الشرعية من مثل القرآن وعلومه، والحديث ودراساته وجمعه ، والفقه وأصوله وعلوم اللغة وآدابها ووضع أول نماذج للمعاجم اللغوية ، وعلوم الكلام والمنطق

والأخلاق والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والسياسة والإدارة والاقتصاد وغيرها من الدراسات الإنسانية ، والفلسفة ، والهندسة والرياضيات ، ومختلف أنواع الدراسات الكونية من مثل علوم الفلك - الهيئة - ، وعلوم الأرض ، وعلوم الحياة ، والفيزياء ، والكيمياء ، والصيدنة ، والطب ، والهندسة ، والعمارة والتخطيط ، وكثير من الفنون كالموسيقى والغناء والخط والرسم ، وكثير من المعارف التقنية من مثل صناعات الزجاج والصيني والخزف ، والصناعات الخشبية والجلدية ، وصناعة الغزل والنسيج ، وصناعة الورق ، وصناعات استخراج كل من المعادن والصخور والخامات المعدنية وطرائق استخلاصها وسبكها ، والجواهر والأحجار الكريمة وصقلها وتشكيلها وتلبيسها ، وغير ذلك كثير من مختلف مظاهر الحضارة الإسلامية (انظر فى ذلك- على سبيل المثال لا الحصر - كتاب « تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى » للدكتور عبد المنعم ماجد ، وكتاب « المدنية الإسلامية وأثرها فى الحضارة الأوروبية » للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور) .

كل ذلك فى إطار من الفكر العلمى المتميز ، المستهدى بهدى القرآن الكريم ، والسنة النبوية المطهرة ، والمستضىء بنورهما ، والمؤسس على أدق الضوابط العقلية والحسية والمنطقية ؛ لوضوح القضايا الكبرى فى حياة الإنسان : من هو ؟ من الذى خلقه وخلق الكون من حوله ؟ وما صفات هذا الخالق العظيم ؟ ما رسالة الإنسان فى هذه الحياة ؟ وكيف يمكن له القيام بها على الوجه الأكمل ؟ ثم ما مصيره بعد تلك الحياة ؟ وكيف لا والإسلام قد حدد كل ذلك فى وضوح ما بعده وضوح ، ومنطق لا يدانيه منطق ، ولا تدينه حجة كما يتضح فى النقاط التالية :

١ - فقد علَّم الإسلام الناس أن هذا العالم المادى - على عظمة بنائه ودقة صنعه ، وإحكام حركته - ليس كل شىء ، لأن من وراء هذه المحسوسات غيبًا لا يستطيع الإنسان أن يشق حجبه ، أو أن يصل إليه بحواسه يقول فيه الحق - تبارك وتعالى - :

- ﴿ الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ... ﴾[1].
- ﴿ ... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ... ﴾[2].
- ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ... ﴾[3].
- ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[4].
- ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾[5].

٢ – كما علَّم الإسلام الناس أن هذا الكون ليس أزليًّا ، فقد كانت له فى الأصل بداية ، كما أنه ليس بأبدى ، فسوف تكون له فى يوم من الأيام نهاية ، وذلك بقول ربنا – تبارك وتعالى – :

- ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۞ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۞ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[6].

---

(١) البقرة : ١ – ٣ .
(٢) آل عمران : ١٧٩ .
(٣) الأنعام : ٥٩ .
(٤) النمل : ٦٥ .
(٥) الجن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٦) فصلت : ٩ – ١٢ .

• ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾[1] .

• ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[2] .

• ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾[3] .

٣ – وأن هذا الكون بكل من فيه وما فيه لم يوجد نفسه بنفسه ، بل أوجده من العدم إله واحد ، هو الذى خلق كل شىء ، وإن شاء أفناه وذهب به :

• ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[4] .

٤ – وأن هذا الإله الخالق متفرد فى وحدانيته فلا إله غيره ، وهو – تعالى – منزه عن الشريك فلا شريك له فى ملكه ، وعن المثيل فلا شبيه له – سبحانه وتعالى – من خلقه فى ذاته أو صفاته أو أفعاله :

• ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[5] .

• ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[6] .

وهو – سبحانه وتعالى – منزّه عن جميع صفات خلقه وعن كل وصف لا يليق بجلاله ، فلا يحده مكان ولا زمان ؛ لأنه خالق المكان ومبدع الزمان .. لا تشكله المادة ولا الطاقة لأنه خالق كل منهما ، هو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، قادر .. لا حدود

---

(١) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) إبراهيم : ٤٨ .
(٣) الأنبياء : ١٠٤ .
(٤) (الأنعام: ١٠٢ ، الرعد: ١٦ ، الزمر: ٦٢ ، غافر: ٦٢) .
(٥) الشورى : ١١ .
(٦) الأنعام : ١٠٣ .

لقدرته ، عالم .. لا يخفى شيء عن علمه..، عادل .. لا يفلت ظالم من حكمه ، متصرف .. لا يخرج شيء عن مشيئته ، حكيم .. كل ما فى الكون ينطق بقدرته وحكمته ، رحيم .. تعم الكون رحمته ، ونعيش فى فيض من رعايته وعنايته .. وضع نواميس الكون بالحق ، وجعل كل شيء فيه بمقدار ، وحدد من الأزل دقائق مكوناته ، وتفاصيل هيئاته وحركاته وسكناته ، هو ﴿ **على كل شيء قدير** ﴾ ، و﴿ **على كل شيء شهيد** ﴾ و﴿ **على كل شيء وكيل** ﴾ ، هو - سبحانه وتعالى - أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، سبحانه له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، لا إله إلا هو ، لا شريك له فى ملكه ، ولا شبيه له من خلقه ، ولا منازع له فى سلطانه ، منزه عن الصاحبة والولد، ولا معبود بحق سواه :

• ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾[1] .

٥ – وهذا الخالق العظيم هو الذى أوجد كل ما فى الكون من جمادات وأحياء ، ثم خلق الإنسان وجعله أكرم هذه المخلوقات ، لأنه كيان روحى عاقل ، قادر على إدراك ذاته بصورة متميزة عن كل ما سواه من الكائنات الحية الأخرى التى نعرفها ، وقادر على التفكير وعلى اكتساب المعارف وتعليمها ، ثم إنه كيان حَىٌّ ذو إرادة حرة ، تركت له القدرة على الاختيار الواعى ، وعلى التمييز بين الخبيث والطيب ، ومن ثم فهو أهل للقيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض واحتمال تبعات هذا التكليف .

هذا الإنسان الذى خلقه الله تعالى من طين ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه من علمه ، وأمر الملائكة بالسجود له ، وكرمه على كثير من الخلق .. له رسالة محددة فى هذه الحياة ، وهى رسالة من شقين متكاملين : عبادة الله بما أوجب ، وخلافته فى أرضه بما أمر ، وكلاهما ضرب من العبادة .

---

(١) الإخلاص : ١- ٤ .

هذا الإنسان هو أعلى المخلوقات مرتبة ، لأنه جامع لكل صفاتها : ومتميز عليها بالقدرة والإرادة والاختيار ، فهو الكائن الحى ، العاقل ، القادر ، الناطق المختار ، المكلف ، **وعلى ذلك فإن الإنسانية فى الإنسان ليست بجسده المادىّ المعقد ، ولا بصفاته التشريحية الخاصة ، إنما الإنسانية فيه هى بقدرته على الارتقاء بنفسه إلى الدرجة التى تؤهله لاحتمال تبعات التكليف ، وأمانة المسؤولية ؛ حتى يتمكن من الوصول بنفسه عن طريق الاجتهاد الواعى فى الكمال إلى أعلى الدرجات الممكنة .**

وقمة الخير فى الإنسان ، ووسيلته إلى إنمائه هى خضوعه التام بالعبودية لله وحده ، بمعنى ألا يشرك بعبادته أحدًا ، ومن سمات هذا التوحيد الخالص أن يؤمن الإنسان بأنه لا سلطان فى هذا الوجود لغير الله ، ومن ثم فإن العبودية لغيره هى إهدار لكرامة الإنسان، وإذلال لإنسانيته ، وهى صورة من صورة الشرك الذى حرمه الله .

ومن الخير الفطرى فى الإنسان كذلك .. تلك القيم الكبرى التى فطر الله الإنسان عليها ، ومنها : **حب الحق ، وحب الخير ، وحب الجمال الحسى والمعنوى** .. وهذه القيم السامية فى الإنسان هى انعكاس لعظمة القدرة الإلهية المبدعة ، ودلالة على حكمة الخالق العظيم .. الذى هو الحق كله .. والخير كله .. وهو مسبغ كل صور الجمال على الإطلاق ..

٦ – كذلك يعلم الإسلام الناس أن هذه الحياة ليست كل الحياة .. فبعدها الموت ، ثم البعث ، والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط ثم الانتقال إلى حياة أخرى دائمة ، تبدأ بحساب دقيق يكافأ بحسب نتيجته المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسىء عن إساءته .

٧ – ويعلم الإسلام الناس أيضًا أنه بالإضافة إلى المخلوقات المادية الظاهرة التى ندركها بالحس ، هناك مخلوقات غيبية بعضها جماد ، وبعضها حى ، ومن الأحياء الغيبية من هو خالص للخير المحض ، وهم الملائكة ، ومن هو خالص للشر المحض وهم الشياطين ، ومن هو مختلط بين خير وشرير ، وصالح وطالح وهم الجن .

٨ – كذلك يعلم الإسلام الناس أن الخالق العظيم – رحمة بعباده – قد اختار نفرًا من البشر ، نزل عليهم شرائعه ليبلغوها إلى الناس ، وهؤلاء المختارون هم الرسل

والأنبياء، ويحمل رسالتهم من بعدهم العلماء الصالحون ، وأن هذه الشرائع تضمنتها كتب وصحائف مقدسة ينسخ المتأخر منها المتقدم ، وأن آخر الكتب السماوية نزولاً هو القرآن الكريم ، وقد حرفت الكتب والصحف السماوية من قبله أو ضيعت ونسيت ، وبقى القرآن الكريم محفوظًا بحفظ الله تحقيقًا للوعد الإلهى الذى قطعه ربنا - تبارك وتعالى - على ذاته العلية فقال - عز من قائل - :

• ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1] .

ويعلم الإسلام العظيم الناس أن خاتم الأنبياء والمرسلين هو محمد بن عبد الله ﷺ ، الذى ختمت ببعثته النبوات ، كما ختمت برسالته الرسالات، فلا نبىّ ولا رسول بعده ، والقرآن الكريم معجزته ودستوره، ودستور البشرية من بعده إلى قيام الساعة ، لأنه الصورة الوحيدة من وحى السماء التى تعهد ربنا - تبارك وتعالى - بحفظها فحفظت على مدى الأربعة عشر قرنًا الماضية فى نفس لغة وحيها - اللغة العربية - وحفظت حفظًا كاملاً ومطلقًا حتى تبقى شاهدة على الجميع إلى قيام الساعة .

٩ – كذلك يعلم الإسلام البشرية كافة أنه بعد محمد ﷺ قد أوكل الله تعالى الناس إلى ما جاءهم من الحق الذى تعهد بحفظه فى القرآن الكريم ، وإلى النموذج البشرى التطبيقى الأمثل الذى جسده الله - تعالى - لهم فى شخص النبى والرسول الخاتم - صلوات الله وسلامه عليه - والذى مكنه من حسن القيام بواجبات الاستخلاف فى الأرض وحفظ لنا ذلك فى السنة النبوية المطهرة ، كما أوكل ربنا - تبارك وتعالى- الناس إلى ما وهبهم من سلامة الفطرة ، ورجاحة العقل ، وحب الحق ، وقد حمل الله تعالى أمة الإسلام أمانة تبليغ الدعوة وكفل لها النصر ، وأثبت لها الجزاء فى الدنيا والآخرة .

---

(١) الحجر : ٩ .

هذه المفاهيم التى تكوِّن جوهر العقيدة الإسلامية هى التى كانت من وراء العقل فى ظل دولة الإسلام حتى أوصلته إلى أعلى مراتب المعرفة والإيمان معًا ، وهى التى جعلت الفكر العلمى والفلسفى الإسلامى فكرًا متميزًا كل التميز عن نظيره فى جميع الحضارات السابقة واللاحقة ، وجعلت منه أساسًا لنهضة علمية وتقنية مغايرة تمامًا لأسس الحضارات المادية ، وفى ظل هذه المفاهيم تقدم علماء المسلمين فى علوم الأرض ، كما تقدموا فى غيرها من مجالات المعرفة كما سبق أن أشرنا .

وفى ذلك كتب **بريفولت** (Briffault, Robert Stephen, 1867-1948) فى كتابه المعنون : « صناعة الإنسانية » (The Making of Humanity) الذى نشر فى سنة ١٩١٩م ص١٩٠ ما ترجمته « **فعلى الرغم من أنه لا توجد ناحية واحدة من نواحى النمو الأوروبى تخلو من أثر فعال للحضارة الإسلامية ، إلا أن ذلك هو أوضح ما يكون ظهورًا وفعالية فى تطور العلوم الطبيعية والروح العلمية التى تمثل القوة المميزة للعالم الحديث ، والمصدر الأول لانتصاره** ».

ويضيف : « **إن دَيْنَ عِلْمنا للعلم العربى لا يتمثل فقط فى المبادرة باكتشاف نظريات أدت إلى قلب موازين المعرفة ؛ لأن العلم مدين للحضارة العربية بأكثر من ذلك؛ لأنه مدين بوجوده كلية لتلك الحضارة ، فلقد كان العالم القديم – كما رأينا – عالم ما قبل المعرفة العلمية ، فعلم الفلك ، وعلم الرياضيات عند الإغريق كانا بضاعة غريبة مستوردة لم تتأقلم أبدًا فى الحضارة الإغريقية ...** » .

ويزيد بريفولت فى ص٢٠٢ من الكتاب نفسه ما ترجمته : « **تعلم روجر بيكون اللغة العربية والعلم العربى بتوجيه من تابعى العرب فى مدرسة أكسفورد ، ولم يكن لأى من روجر بيكون** (Roger Bacon 1214- 1294 A.C.) **، ولا من تسمى باسمه فيما بعد ؛ أى فرانسيس بيكون** (Francis Bacon 1561-1626 A.C.) **أى فضل فى اكتشاف الطريقة التجريبية ، فلم يكن روجر بيكون سوى سفير من سفراء العلم العربى ومنهجه إلى أوروبا المسيحية ، ولم يتردد هو لحظة واحدة فى الاعتراف بأن تعلم اللغة العربية كان السبيل أمام معاصريه للوصول إلى العلم الحقيقى** » .

« وإن المناقشات حول مَنْ مُخترع المنهج التجريبى ليست إلا جـزءاً مـن سـوء الاستنباط عن أصول الحضارة الأوروبية ؛ لأن المنهج التجريبى العربى كان – على عهد بيكون – منتشرًا انتشارًا هائلاً ، ومنغرسًا بشغف شديد فى كل أوروبا » .

« وقد كان العلم هو أهم إضافات الحضارة العربية للعالم الحديث ، ولو أن ثمـاره كانت بطيئة فى نضجها ، فلم يتمكن العملاق الذى ولدته الحضارة العربية من النهوض فى قوة إلا بعد زمن طويل من تخلف العرب وترديهم فى الظلمات ، ولم يكن العلم العربى وحده هو الذى أعاد أوروبا إلى الحياة ، بل إن تأثيرات أخرى عديـدة مـن الحضـارة الإسلامية قد أضاءت الحياة الأوروبية بأولى ومضات وهجها ... » .

* * *